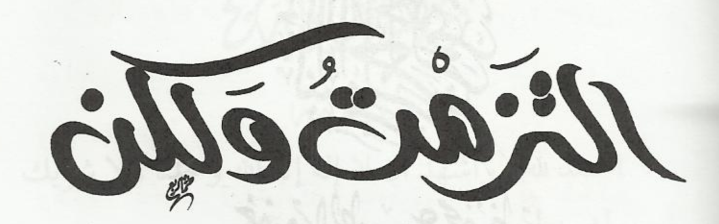


كتبه

ياسر برهامي





فضيلة الشيخ

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين









رقم الإيداع : ٢٠٠٧/٥٥٠٥



الإسكندرية - أبو سليمان - ش عمر
أمام مسجد الخلفاء الراشدين
٠١٢٠١٥٣٩٠٨-٠١٠٥٠١٣١٥١



الإسكندرية - مصطفى كامل
بجوار مسجد الفتح الإسلامي
٠١٠٦٧١٤٧٦٨-٠١٠٢٧٧١٠٦٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمة

الحمد لله ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

فإن كثيرًا منا ـ أو أكثرنا أوكلنا إلا من رحم الله ـ إذا التزم وقف بالتزامه عند دائرة معينة لم يتعدّها ، وغالبًا ما تكون دائرة الهيئة والشكل وأداء بعض العبادات ، وهذه أمور بلا شك من الالتزام بالشرع ، ولكنها لا تكفي وحدها في تحقيق الاستقامة ، ونحن نحتاج إلى أن تثقل كفة ميزاننا عند الله ، وكذلك في صراعنا مع أعداء الإسلام ؛ فلن ينتصر المسلمون بقلوب خاوية ، والتزام أجوف ، وأعمال ظاهرها الصلاح وباطنها الفساد والجاهلية كما كانت ، بل لا بد أن يتعمق الالتزام في قلوبنا ، ويضرب

بجذوره في أرض نفوسنا ، حتى يثمر ثماره على الجوارح والأعمال والأقوال ، ويغير منا كل شيء حتى نصير موافقين لشرع الله في عقيدتنا وإيماننا ، وفي عبادتنا وأعمالنا ، وفي معاملتنا وأخلاقنا وسلوكنا ، وفي دعوتنا وجهادنا ، وهذه المحاضرة محاولة لتحقيق الالتزام الحقيقي ، والتخلص من الالتزام الأجوف ، ومحاولة تخطي العقبات التي تعرض للملتزم في طريقه ذلك ، نسأل الله أن ينفع بها كاتبها وناشرها وقارئها ، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل والسر والعلن ، وأن يتوفانا مسلمين ، وأن يلحقنا بالصالحين .

كتبه

ياسر برهامي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد :

تعيش أمتنا فترة من المحنة الشديدة والأزمة والتعسر ، يتسلط عليها الأعداء تسلطًا داميًا مؤلمًا ، يجعل قلب كل مؤمن ينزف من هذه الجراح ، ويحزن لما يصيب إخوانه في المشارق والمغارب .

بلاء نسأل الله ﷻ أن يرفعه عن الأمة ، في كل مكان تسلط عليها عدو لا يرحم ، بل يمكر بالليل والنهار ، ولا يستحيي ولا يخشى الله سبحانه وتعالى ولا يتقيه .

بلاء شديد ، وأمر الأمة مفرق ممزق ، لا يزالون يختلفون على كل شيء ، ولا يجتمعون على أمر ، ولا يمكن أن يُتصور لهم مخرج إلا من عند الله سبحانه وتعالى .

ويحار الراغبون في الخروج من هذه الأزمة وهذا المأزق

الخطير وهذه المحنة ، وربما فعل الناس أفعالًا لا تؤدي إلى تغيير ، وإنما هي محاولات يائسة لا يترتب عليها إلا مزيد من البلاء .

والذي لا نشك فيه أن ما وصل إليه حال أمتنا والبلاء بتسلط العدو علينا لن يرفع عنا إلا إذا تغيرنا ، فالله ﷿ ﴿ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد : ١١].

أخبر الله ﷿ بذلك ، وأخبر أنه يولي بعض الظالمين بعضًا بما كانوا يكسبون ، ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأنعام : ١٢٩] ، فما سلط الله ﷿ علينا عدوّنا إلا بسبب منا .

ربما قدْ مَرَّ على صحوتنا الإسلامية وعلى التزامنا أكثر من ثلاثة عقود أو نحو ذلك ، ومع ذلك فلا يزال الطريق طويلاً ، وقد كنا في بداية الصحوة الإسلامية نظن أنه خلال سنوات معدودة سوف يتغير وجه الأرض كله ، ولكن حدثت عقبات وموانع ، ولا زالت الصورة باهتة ، ولازال التغيير المطلوب كبيرًا جداً ، ولابد أن يكون جذرياً ، ولابد

أن يكون شاملاً ، فأمتنا لن تتغير إلا إذا تغيّرنا نحن ـ الملتزمين ـ تغيّرنا من داخلنا ، لأنه لو كان هناك مصباح منير قويّ الإضاءة في مكانٍ ما فلابد أن يضيء ما حوله ، ولابد أن يضيئه بطريقةٍ تثمر إذهاب الظلمات وإزالتها حتى ينتشر النور في كل مكان .

وما زال الظلام منتشرًا ، ومازال الظلم والفساد منتشرًا ، وذلك بالتأكيد إما لضعف في المصباح ، أو لحُجُبٍ تمنع من وصول هذا النور ، وهذا كله من داخلنا كما ذكرنا ، ولابد أن نعالج أنفسنا وأن نغير أحوالنا ، وأن يزداد إيماننا ، لكي تَحْصُلَ لنا بإذن الله ﷾ الوعود التي ذكرها الله ﷿ في كتابه المبين من النصر والتمكين والفتح المبين ووراثة الأرض ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء ١٠٥-١٠٧] .

وقال عز وجل : ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ ﴾ [النور ٥٥] .

لذلك سوف تظل الأحوال على ما هي عليه حتى يقع ذلك التغيير أو يذهب الله عز وجل بنا ـ ونسأل الله العافية ـ ويأتي بقوم آخرين ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوۡاْ يَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمۡثَٰلَكُم ﴾ [محمد ٣٨] .

نعوذ بالله من التولي ، ونعوذ بالله من أن نكون ممن ترك الطريق الذي أراده الله سبحانه وتعالى منا وأراد أن نسلكه .

لذلك نقول : إننا لابد لنا أن نتغير ، وتغيُرنا هذا نتكلم فيه في ثلاثة محاور هي علاج ثلاث أزمات خطيرة ، لابد أن ننظر فيها ، كل واحد منا ينظر في نفسه ، ويسعى في علاجها ، وكذلك ينظر فيمن حوله من أهله وإخوانه وأصدقائه

وجيرانه ومن يصلي معهم في المسجد لكي يعالج هذه الأمراض لكي نخرج من هذا النفق المظلم الذي والله أصبح شديد الظلمة ، ولا يدري أحدٌ ما المخرج منه ، إلا برحمة الله سبحانه وتعالى .

الأزمة الأولى أزمة تحقيق التوازن بين العلم والعمل والسلوك والدعوة :

وهذه أزمة خطيرة يقع فيها كثير من الملتزمين في مختلف بلاد الإسلام ، وهناك أزمة في تحقيق التوازن في كل واحدة من هذه الأربعة ، ثم بعد ذلك فيما بينها جميعًا .

١ ـ أولًا العلم :

فتجد خللًا كبيرًا في أنواع العلوم التي نحتاج إلى تعلُّمها ويقع تقصير كبير في تعلم بعضها ، فربما يتناول البعض أنواعًا من العلوم ينشغل بها انشغالاً تاماً لأنه يجد نفسه قد برع فيها ، على حساب أنواع أخرى ربما هي أهم منها ، أو ربما يهتم بنوع ويترك ما هو مثله في الأهمية ، وذلك يُحْدِث نتوءاً في الشخصية ، ويؤدي إلى عدم توازن

فيها ، وهذا نحتاج معه إلى أن نتذكر ما بينه النبي ﷺ في آخر الإسلام بعد أن فرضت الفرائض ، بينه لجبريل حين جاء يعلم الأُمّة دينها ، فلنجعل حديث جبريل (١) نُصْبَ أعيننا ، فهو بالتأكيد يحقق لنا أمر التوازن ، ولْننظر في كل جزئية من جزئيّاته ، ولننظر ما صنعنا فيها .

هناك من ينشغل ـ كما ذكرنا ـ بأنواع من العلوم هي خير بلا شك ، ولا يمكن أن يشكك في ذلك أحد ولكن غيرها أهم منها ، وتحقيق هذا التوازن أمر ضروري .

فلابد أن نتعلم الإيمان بالله ، وهو يشمل الإيمان بالله وأسمائه وصفاته وربوبيته ، ومعاني هذه الربوبية ومظاهر الشرك فيها ، وكذلك نتعلم إلهيته ﷻ ومعاني هذه الإلهية وأنواع العبادات التي نصرفها لله ﷻ والمظاهر المنتشرة للشرك فيها ، لكي نأتي الخير ونترك الشر ، لكي نؤمن بالله ونكفر بالطاغوت .

وكذلك نتعبد بأسماء الله وصفاته ـ كما ذكرنا ـ لكي

(١) البخاري ٥٠ ، ومسلم ٨ .

نحب ربنا من كل قلوبنا ، وكذلك لابد أن نحب في الله وأن نبغض في الله ، نتعلم ذلك ونتعلم الولاء والبراء ، ونتعلم ما يلزمنا .

وإلا فأنت تجد في وسط أبناء الصحوة من اتجاهاتهم المختلفة خللاً هائلاً في كل هذه القضايا ، حتى ربما وجدت فيمن ينتسب إلى العمل الإسلامي من يوالي أعداء الله ويصحح كفر الكافرين ، ويُصوّبِ الإعانة على ذلك ـ والعياذ بالله ـ ، وربما يرى الإسلام أحد البدائل المطروحة على الناس فمن يختار الإسلام هو عنده كمن يختار المذاهب الأخرى ، وإذا اختار مذاهب الكفار الأخرى من يهودية أو نصرانية « بل وصل الأمر الآن إلى البوذية » فذلك ينبغي احترامه كذلك ـ نسأل الله العفو والعافية ـ .

فهذا بلاء عظيم لا شك فيه ، نتيجة الخلل في أمر التوازن في أنواع العلوم ، فكما ذكرنا لابد أن نتعلم الإيمان بالله ، ونتعلم الإيمان بالملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر خيره وشره ، وقضايا الإيمان والكفر .

ونتعلم قضايا الاعتقاد في الصحابة رضي الله عنهم والإمامة ونحو ذلك ، نتعلم هذه الأصول التي بيّنها النبي ﷺ ، وأن يتحقق التوازن في ذلك كله فلا يطغى جانب على جانب .

وكذلك نتعلم الإسلام : نتعلم شهادة التوحيد ومقتضياتها ولوازمها ونواقضْها ، لنحذر على أنفسنا من ذلك ، خصوصاً مع انتشار أنواع من النواقص وسط الناس ، وكذلك نتعلم شهادة أن محمداً رسول الله ولوازم هذه الشهادة ومعانيها ومقضيات الإتباع ، وحقيقة التزام السنة واجتناب البدعة ، وتقديم هدي النبي ﷺ على هدي كل أحد وتقديم سلوكه وطريقته في مسائل الاعتقاد ومسائل العمل ومسائل تهذيب القلوب وإصلاحها ومسائل الأحكام الشرعية والفقهية ، وتقديم نهيه ﷺ على نهي كل أحد ، ولابد أن نتعلم القواعد الكلية في ذلك ، وإلا فأنت تجد تخبطاً هائلاً في كل هذه المسائل .

هذا نَعُدُّه نقداً ذاتياً لأبناء الصحوة الإسلامية المباركة ـ زادها الله عز وجل بصيرة وعلماً وعملاً .

لكننا نتساءل لماذا لا نرى نتاجاً ؟ لماذا تحصل المصائب تلو المصائب ؟ وننتقل كل عام إلى أحوال من البلاء والمحن أشد ـ ربما ـ من التي قبلها ؟ لابد أن هناك خللاً كبيراً ونحن تتضح لنا كل يوم أنواع من الخلل في مفترقات كثيرة حتى في أبناء المنهج الواحد ، ولْنَقُلْ مثلاً :

في أبناء المنهج السلفي ، كم من النتوآت المنهجية والنتوآت العلمية نتيجة عدم تحقيق التوازن في العلم في كثير من أبناء هذا المنهج الذي يلتزمون فيه باسْمِ (السلفية) الذى قد أصبح خالياً من المضمون عند الكثيرين .

لذلك نقول : إنه لابد من تحقيق التوازن في العلم ، فنتعلم الصلاة ، ونتعلم الزكاة ، ونتعلم الصيام ، ونتعلم الحج .

انظر على سبيل المثال إلى هذه العبادة العظيمة ـ الحج ـ وكيف يقع فيها من التفاوت ومن الاختلاف والتناقض مما لا يعلمه إلا الله عز وجل في العلم وفي العمل ، وأكثر الناس وهم

مقبلون على أداء هذه العبادات يُعْرِضون عن تعلّمها ، ولو أنفق من الوقت في تعلمها فإنما ينفق ساعة واحدة أو ساعتين ، ويَعُدُّ نفسه إذا حضر محاضرة تشرح له المناسك ـ أو ربما وهو في الطريق إلى هناك ـ قد أدى ما عليه ، فضلاً عما سوى ذلك من أنواع العلوم الأخرى .

كعلم الحلال والحرام مثلاً ، فكم منا يتعامل بمعاملات لا تَمُتُّ إلى الالتزام بصلة عندما يتعامل مع غيره ، وهي أمثلة كثيرة مازالت تتكرر ، حتى لا يستطيع الإنسان أن يسكت عنها ، فإلى متى نظل على هذا ؟ إلى متى نظل على إخلاف الوعد ؟ كم إنساناً اقترض من آخر ثم وفّاه في موعده ؟ لا يكاد هذا الأمر يقع ، وكم معسرًا يذهب للدائن عندما يحين وقت السداد ويقول : أنا مُعْسر فأنظرني ، وأنا عاجز عن أدائه في هذا الوقت فسامحني في ذلك ، ويبين له عذره فيقبل الدائن منه عذره ؟

وكم من إنسان دفع ماله إلى أخ ليضارب له به فلا يتفقان على طريقة توزيع الربح ، وإنما يقول : أعطيتك مبلغ

كذا ... ويومياً توجد نوعية من هذه المشاكل ، حتى من الملتزمين وهم يحضرون دروس العلم وخُطب طلاب العلم ونحو ذلك ، ومع ذلك ما أكثر أن يقع ذلك ، ولا يقبل الواحد منهم في ذلك خسارة ، فلو وقعت خسارة تجد المضارب يقترض حتى لا يقول لصاحب المال : قد خسرنا ، فلا يستطيع أن يقول له : إن مالك لن يرجع إليك ، أو لا يرجع منه إلا كذا وكذا مثلاً ، بل هناك من يعطيه ربحاً كاذباً ... ، كم يقع ذلك ، وأنا أقول هذا على سبيل المثال .

وكم من مشاكل تقع بين الزوجين وكم من حلول غير إسلامية توضع لها وتفرض عليها ، ويقع أعظم الفساد في حلول هذه المشاكل . من أين أتي هذا الأمر ؟ من عدم التوازن في الالتزام في هذا الجانب ـ جانب العلم .

وعدم التوازن هذا ربما يقع ممن يذكر عنه حفظ القرآن ويذكر عنه قيام الليل والمواظبة على النوافل ، وربما يقع هذا ممن يفعل الخير الكثير والنفقة في أوجه الخير المختلفة ، لكنه في جوانب معينة لا يحصل منه إلا الخلل .

وكم من مشاكل تقع بين الإخوة لا نجد فيها أدنى درجة من درجات الالتزام بما نأمر به ونعلّمه أو نتعلمه .

مثال بسيط والأمثلة كثيرة:

ربما يقع شقاق بين الزوجين وتطلق المرأة ، فما أول ما تفعله المرأة إذا طلّقت ؟ أن تترك بيت الزوجية .

وفي كل المشاكل الزوجية التي عرضت عليّ والتي بلغت عشرات المرات وربما أكثر ، ما وجدت غير حالة واحدة قَبِل فيها الحاضرون أن تلزم المطلقة بيتها في العدة عندما عرضت عليهم هذا . لكن في بقية عشرات المرات ما قبلوا ذلك ، مع أن هذا في كتاب الله عز وجل ، فالله عز وجل يقول :

﴿ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ﴾ [الطلاق : ١] .

ففي هذه الحالة عرضت هذا الأمر على هؤلاء الناس وهم من العوام المحبين ـ كما نسميهم نحن ـ ولكنهم في الحقيقة كانوا إخوة في الالتزام أفضل من كثير من إخواننا

الذين ربما يظهرون أنهم ملتزمون بالهيأة الإسلامية والشكل الإسلامي ، فقَبلوا وقالوا : أهذا حكم الشرع أن ترجع المرأة إلى المنزل وقد طلقت ؟ فقلت لهم : هذا حكم الله ، والله يأمر بذلك في القرآن ، فلابد أن ترجع إلى المنزل وتبقى مدة العدة فيه فقبلوا بحمد الله .

ونجد الزوجات الآن قبل الانفصال تذهب إلى بيت أبيها بمجرد أي غضب ، فهل هذا من الحق الذي أحقه الله عز وجل ، وأما إذا طلقت فنجد هناك من يسأل : ألا يوجد مخرج نتجنب به مسألة لزومها البيت فهي مسألة صعبة جداً ؟ فابحث لنا عن مخرج حتى تترك المنزل وتذهب لتعتد في بيت أبيها !

فلماذا يكون غريباً على الناس أن تبقى المعتدة في منزل الزوجية في فترة العدة وألا تخرج منه إلا أن تكون قد أتت بفاحشة مبينة ؟ ومعظم المشاكل التي تقع بين الإخوة والأخوات ليست ـ بحمد الله ـ في قضية الفاحشة ، وإنما هي مشاكل نتيجة عدم التفاهم .

فهذه أمثلة ضربتها لنتبيّن وجوب تحقيق التوازن في العلم الواجب ، وأن هذا فرض عين على من تعامل به ، ففرض عين على من طلق أن يتعلم فقه الطلاق ، وفرض عين على من طُلقت أن تتعلم فقه الطلاق ، وفرض عين على من تزوج أن يتعلم فقه الزواج ، وفرض عين على من تزوجت أن تتعلمه كذلك ، وفرض عين على كل من تاجَرَ أو شارَكَ أو ضارَبَ أن يتعلم فقه ذلك .

وتحقيق هذا التوازن في العلم الواجب أصبح نادراً جدًا في وسط الملتزمين ، وأصبح الالتزام ـ كما ذكرنا من قبل ـ يتوقف عند هيأة ونقاط معينة يصبح الشخص ملتزماً بتحقيقها ، أن يلتحي ويرتدي القميص ويذهب إلى مساجد الإخوة ، وأن تنتقب المرأة وتتواجد في بعض الدروس ، وأكثر ذلك يكون لمجرد مجالسة أخواتها والسمر معهن وعدم الالتفات إلى الدرس في الأغلب إلا من رحم الله ﷻ .

لو أردنا أن نقول : هيا نتعلم الدين مسألة مسألة لكي

نحقق الالتزام لكان هذا صعبًا ، فالناس يتحملون ساعة أو ساعتين ، وفي آخر الساعة الثانية يكونون قد ملوا وقالوا : متى ينتهون ، يكفي هذا ... ، ونسأل الله العفو والعافية .

فالغرض المقصود أن نضع أيدينا على مواطن الداء ، فنحن نريد أن يكون التزامنا بالعلم ـ كما ذكرت ـ فيه شمولية وتحقيق توازن ، نتعلم ما يلزمنا ونتعلم الأخلاق الواجبة ، نتعلم صلة الأرحام وبر الوالدين ، وهي ـ والله ـ دروس غاية في الأهمية ، وأحكام شرعية عملية تكلم عنها العلماء في بطون الكتب لا تصل إليها أعين القارئين ولا ألسنة المتكلمين ولا يكاد أحد يدرسها ، وعندما نبحثها نجدها تحصيناً للإنسان من أن يقع في الحرام والمنكر والمخالفة الشرعية ، وتفصيلاً دقيقاً لما يلزمه أن يعمله مع والده وأقاربه وجيرانه ونجد حدودًا جميلة ورائعة .

ولكن كم مرة وصلت أنا ـ حتى ـ إليها وقرأتها على إخواني ؟ فضلاً أن نسأل : من واظب على الحلقة من أول الكتاب إلى أن وصلنا إلى باب « البر والصلة » ؟

لا يوجد أحد واظب ، فالمجلس فيه عدد كبير من الحاضرين ، ما انقطع أبداً ولكن الذي بدأ ليس الذي انتهي ، فالذي بدأ ظل مواظباً مدة ثم رحل ، والذي أتى في منتصف الكتاب أكمل النصف الثاني ، ولا أجد أحداً واظب من أول الكتاب إلى أخره إلا واحدًا أو اثنين ...

الغرض المقصود أن هذه المسائل تحقق التوازن في العلم ، ويؤدي فقدها إلى خلل كبير جداً ويؤدي إلى اضطراب في حياتنا ، ويؤدي إلى أن تملأ الثغرات جوانب الالتزام .

إذا قلت هذا فأنا أقوله عن الإخوة في جميع المستويات ، ونحن عندنا منابر متعددة ، وأنا أؤكد أن معاناتنا ليست تأتي من قلة المنابر ولا من قلة فرص الخطابة ، ولكن كم من الإخوة الذين يعْتَلون المنابر يُعِدُّ الخطبة بتوازن حقيقي وهو يَعْلم ما الذي يحتاجه الناس ليعطي نفسه الدواء وإياهم ، وهذا الأمر يكاد ـ والله ـ يكون أعسر من غيره بكثير ، أن يكون عند الدعاة ذلك التوازن ، وأنا أعلم إخوة كثيرين أفاضل يدعون إلى الله ﷻ ولكن هذه الدعوة لا تثمر الثمار

المرجوة منها ، لأن هناك خللاً في التوازن لدى الداعية نفسه ، ليس عنده جوانب العلم المختلفة ، ولا أقصد بذلك أن يكون متخصصاً في كل علم من العلوم ، فهذا لا يقع ولا يوجد ولا يمكن أن يُتصور أن يكون إنسان قد وصل القمة في التجويد ، ووصل القمة في مصطلح الحديث ، ووصل القمة في الفقه ، ووصل القمة في التوحيد ، وغير ذلك في كل أنواع العلوم ، لكن لابد أن يتعلم العلوم المقصودة لذاتها ، وهي التي يلزم كلَّ مسلم ومؤمن تعلُّمُها ، يتعلم الإيمان والإسلام والإحسان ، وأعمال القلوب الواجبة ، يتعلم ما يلزمه في معاملته لربه ﷻ ، من الإخلاص والصدق مع الله ﷻ والصبر والخوف والرجاء والتوكل والشكر والرضا ، وهذه كلها مما يسمى علم السلوك ، مع أن الحقيقة أن هذا علم واجب وإن سميناه ـ أو سماه بعض الناس ـ باب الرقائق والمواعظ أو نحو ذلك ... ، مع أنه ليس كذلك فحسب ، بل هذا أمر من العلم الواجب على الإنسان أن يتعلمه ، وهو علم نحتاج

إليه بالفعل ، فلابد أن تكون هناك جدية في الالتزام به ومواظبة فيه ، وهي أمور ما زالت بعيدة مع أنها في طاقتنا لا يمنعنا منها أحد ولا توجد دونها عقبات ، إنما العقبات من عندنا ، ولذلك تظل مجموعة كبيرة من الملتزمين يقولون : ماذا نصنع ؟ وماذا نعمل ؟

فنقول : إن الأمر المنهجي مازال بعيداً ، فلابد من التطبيق العملي وأن يكون الإنسان منتقلاً من مرحلة إلى مرحلة أخرى ، وهو مع نفسه كذلك يكون مواظباً ويضع لنفسه برنامجاً ، فكم واحدًا من الإخوة إلى الآن وضع لنفسه برنامجاً لحفظ القرآن ومراجعة ما فاته وما نسيه ؟ وكم واحداً طبقه واستمر في حفظ الباقي ؟ وكم منا من يطبق ذلك ؟ أم هل نترك هذا الأمر بلا برنامج وبلا نظام نريد أن نسير عليه ؟

وقل مثل ذلك في دراسة السنة ، كم منا من قرأ صحيحي البخاري ومسلم ؟ وكم منا من واظب على قراءة رياض الصالحين ؟ وكم من الأخوات قرأت هذه الكتب

وحرصت على متابعة السنة ؟ ما زال البين شاسعًا ، فتحقيق التوازن في جوانب العلم ليس بأن يتقن للإنسان جانباً من العلوم فَيَعُدُّ نفسه موقوفًا على هذا الجانب ولا يدرس غيره ، فيحصل خلل كبير جدًا ، وربما ترأس فيه سريعاً فضلاً عن أن يكون مهملاً له .

ثانيًا العمل :

أما جانب العمل فلابد من تحقيق التوازن في العمل بين عمل الدنيا وعمل الآخرة ، وإنما نقول ذلك على الاصطلاح المعاصر الذي يقسم العمل : إلى دنيوي وأخروي ، وإلا فلابد أن يكون عمل الدنيا هو في طلب الآخرة ، بمعني أنه لا يمكن أن يكون الإنسان جيفة بالليل حمارًا بالنهار ، لا يمكن أن يكون عمل الإنسان مجرد أداء لوظائف لساعات طويلة تمنعه أن يؤدي عمل الآخرة ، وتمنع أن يكون هناك هذا التوازن.

وبالتأكيد لا يعني ذلك أننا لا يمكن أن نعمل عمل الآخرة إلا إذا تفرغنا وتركنا عمل الدنيا ، فلن يقع ذلك

أبدًا ، بل لابد من التوازن ، لابد من مطعم ومشرب وملبس .... أعلم ذلك يقيناً ، ولكن نريد تحقيق التوازن ، فلابد أن نقسم الأوقات ، فقد يشتكي الإخوة أن الطلاب مثلاً يؤجلون دائماً المذاكرة أو طلب العلم ... ، فإما أن يهمل الأخ مذاكرته تماماً بدعوى أنه ينشغل بالعلم أو بالعمل أو بغير ذلك من العمل الإسلامي ، أو أن ينشغل بالمذاكرة ويترك العلم ويترك العمل الأخروي ويترك الدعوة ويترك كل شيء لأنه مشغول ، وهكذا عندما ينشغل بما هو أكثر عندما يخرج إلى مجال العمل وكسب الرزق ، فعدم التوازن هذا يؤدي إلى الخلل بالتأكيد ويؤدي إلى أحد أمرين :

إما أن يكون الإنسان عالة على غيره يسأل الناس ويتكففهم أو أن يكون مفرّطاً في طاعة الله ﷻ .

ـ فما الحل ؟ وماذا نفعل ؟

ـ قال الله ﷻ : ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق : ٢-٣] .

فالحل هو تقوى الله ﷻ ، وإرادة وجه الله ، وتفريغ الهم لها لتكون الإرادات إرادة واحدة ، والصدق مع الله ﷻ .

قال ﷻ في الحديث القدسي : « يا ابنَ آدمَ تفرَّغْ لعبادتي أملأْ قَلْبَك غِنيً وأملأْ يَدَكَ رِزقاً ، يا ابنَ آدمَ لاَ تَبَاعَدْ منّي أملأْ قَلْبَك فَقْرًا وأملأْ يدَكَ شُغلاً »(١) .

إن طبيعة الأعمال المستهلِكة للإنسان هي في الحقيقة ثمرة من ثمرات تسلط الأعداء ، وثمرة غلبه مناهج الشياطين ، فإما أن يعمل الإنسان ليل نهار ـ ونسأل الله العفو والعافية ـ وإما ألا يجد ما يحتاجه ، لكن المخرج بالتأكيد هو أن يفرغ الإنسان همه لله ، ويلجأ إلى الله ﷻ ويتضرع إليه ﷻ ، وتكون همته تحقيق العبودية فعلاً بمعناها الشامل ، وسوف يملأ الله قلبه غنى ويملأ يديه رزقاً ، بعكس ما إذا تباعد .

وسبب هذه النوعية من الأعمال ـ التي لا نجد معها

(١) رواه الحاكم وصححه و اللفظ له وصححه الألباني ، انظر السلسلة الصحيحه ٣٤٦ ، ورواه الترمذي ٢٤٦٦ بلفظ آخر ، ورواه ابن ماجه ٤١٠٧ ، أحمد ٨٤٨١ .

الرزق الطيب الحلال الكافي مع العمل الصالح ـ سببها وجود المعاصي ووجود المخالفات والتباعد عن الله عز وجل الذي قال : « لا تَباعَدْ منّي أمْلأْ قَلْبَكَ فقْرًا وأملأْ يديكَ شغلًا » فيجد الإنسان نفسه مشغولاً ليلاً ونهارًا ورزقه ـ مع ذلك ـ لا يكفيه .

إذَنْ لابد من نظرة أخرى في قضية الهمة والعبودية ليتحقق ذلك التوازن ، لابد أن يكون هناك جزء للعمل الدنيوي الذي تطلب به الآخرة ، والذي يستعين به صاحبه على طاعة الله عز وجل .

كما يقول أبو الدرداء رضي الله عنه : « إني أَقُومُ وأَنامُ وأَحْتَسِبُ في نَومتي ما أحتَسِبُ في قَومتي » .

فالإنسان إذا فعل ذلك كان عابدًا لله على كل حال .

وهذا هو تحقيق التوازن في قضية العمل بمعنى أن يكون دائماً عاملاً لله سبحانه وتعالى .

وأصحاب الصُفّة كان منهم من يحمل على ظهره بالنهار

ليتصدق ، ويشتغل بحفظ القرآن وطلب العلم بالليل ويحقق هذا التوازن ، وتحصل له بركة عظيمة في الأوقات وبركة عظيمة في الأرزاق ، وبركة عظيمة في الأولاد .

والناس اليوم يبحثون عن إصلاح أولادهم ويستخدمون كل الوسائل ، ثم بعد ذلك لا يكونون مستقيمين ، وذلك لقلة البركة ، فلماذا هي قليلة ؟

هذا بالتأكيد لوجود خلل ، ولابد من علاج ، وقد يقع هذا الأمر بدون تقصير من الإنسان ، فسيدنا نوح عليه السلام لم يكن مقصرًا في تربية ابنه ، لكنها عندما تكون ظاهرة عامة فهناك بالتأكيد خلل لابد من مراجعته ، عندما تكون كل الأرزاق غير كافية ، أو أن الأرزاق التي تفتح للناس محرمة فهناك بالتأكيد خلل ، كما قال الله عز وجل في أصحاب السبت :

﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف ١٦٣] .

فضيق الرزق الحلال وسعة الحرام سببه الفسق ، لأنهم فسقوا ابتلاهم الله بأن فتح لهم أبواب الحرام فلا يجدون غيره ، وأغلق دونهم أبواب الحلال ، فالأصل أن الحلال أكثر ـ وهو في قصة أصحاب السبت الصيد في ستة أيام من الأسبوع ـ والحرام أقل ـ وهو الصيد يوم السبت ـ لكن الله فتح عليهم الحرام وضيق الرزق الحلال ـ نسأل الله العافية .

وكثيرًا ما يسألني الإخوة عن أنواع من الأعمال معظمها محرّم أو إعانة على حرام ، فالأمر يحتاج إلى تقوى ويحتاج إلى توبة ويحتاج إلى بعد عن الفسق حتى يفتح الله الأرزاق الحلال ويجنبا الحرام .

ثالثًا الدعوة إلى الله :

أما التوازن في قضية الدعوة إلى الله فلابد أن يكون هناك توازن بين سلوك الإنسان ودعوته ، وأن يكون داعيًا إلى الله بقوله وبسلوكه وبعمله ، وهذا الأمر من أعظم الضروريات .

فليس معنى أن ينشغل الإنسان بالعلم أن يتفرغ له

ويترك الدعوة ، ولا أن ينشغل بالدعوة ويترك العلم ، ولا أن ينشغل بعبادة وحفظ قرآن وقيام ليل ويترك العلم والعمل والدعوة إلى الله عز وجل ، فهذا خلل كبير جداً ، والسلوكيات أيضاً تترتب على ذلك كله ، فنريد تحقيق التوازن بين هذه الأمور كلها .

والعلاج الأساس في ذلك هو النية الصادقة والإخلاص لله عز وجل والتوجه إليه سبحانه وتعالى وتقواه ، لأن التقوى هي مفتاح الخير ، وأن يريد الإنسان وجه الله والدار الآخرة ﴿ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب ٢٩] .

فالأجر العظيم ينتظر من أراد الله ورسوله ﷺ والدار الآخرة ، يريد وجه الله ويريد أن يرضي الله ويرضي رسوله ﷺ ويكون من أتباعه ، وينال عند الله عز وجل القرب والنعيم المقيم في الدار الآخرة ، فإرادة الإنسان هي التي تشكل طريقه وتُعينه على تحقيق التوازن ، وأن يضع ـ كما ذكرنا ـ نُصْب عينيه هذه النقاط ولا يهمل منها شيئًا ، وكل

واحد يعلم نفسه مقصرًا في باب من الأبواب فليَضَعْه أمامه حتى لا ينساه ، وليبحث ماذا يصنع فيه ، ويضع هذه النقاط ضمن برنامجه اليومي حتى لا يقول : لا أجد لها وقتاً ، ويقسم الأربع والعشرين ساعة بحيث يحقق هذا التوازن في العلم والعمل والسلوك والدعوة إلى الله عز وجل ، ولا يحتار ، فإن هذه الحيرة سببها خلل في الإرادة والقصد والتصور والفهم ، وإذا وضعنا أيدينا على التصور والفهم بقيت الإرادة ، فَعَلَى كل واحد أن يراجع أمره مع الله سبحانه وتعالى ونيته لله سبحانه وتعالى ، ونسأل الله العافية وأن يعيننا على ذلك .

أما هذه النقطة ـ وهي أزمة التوازن ـ فلابد من وضع كل أمر في موضعه ، وأن يكون لنا نصيبٌ وباع في كل باب ، وأن نضرب بسهم مع كل من سلك طريقاً يوصله إلى الله سبحانه وتعالى ، لابد أن يكون لنا معه سهم فيه .

الأزمة الثانية أزمة المناهج :

هذه الأزمة تتمثل في المناهج المتعددة المختلفة ، وهي ـ والله ـ من أخطر الأمور التي تهدد الصحوة الإسلامية

وتهدد الملتزمين حتى الملتزمين بمنهج السلف إجمالاً ، وإن أكثر الملتزمين من أبناء الصحوة عمومًا العاملين في العمل الإسلامي اكتفوا بأنهم يعملون من أجل الإسلام ، وأنهم التزموا بالإسلام واكتفوا بالعنوان ، وإن زاد البعض تفصيلاً فقالوا :

نفهم الإسلام ونطبقه كما فهمه سلف الأمة ، ومع ذلك أصبحت العناوين لا تكفي ، ولن يكون العلاج بمزيد من التقسيمات والتسميات ، لاشك أننا يلزمنا أن نلتزم بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة ، لكن هناك معالم معينه لهذا المنهج ، لأن هذا المنهج أصبحت أطراف عديدة تتنازعه ، وليست هناك حواجز ، والعالم كله كقرية واحدة ، فإذا لم توجد حواجز تمنع انتشار الكفر والضلال فبالتأكيد ستتعدد المناهج نتيجة عدم وضوح المنهج لدى أبنائه ، وعدم وضوح المعالم المحددة التي تحدد الطريق تفصيليًا وما ذكرته في جانب العلم أكرره هنا ثانية في قضية المنهج ، فلابد أن تكون هناك معرفة تفصّيلية بمعالم هذا المنهج ، فلا

يكفي مجرد الإعلان ، ولا يكفي مجرد العنوان ، ولا يكفي أن تقرأ فهرس الكتاب لتدخل الامتحان ، فلابد أن تكون على علم بالتفاصيل ولو كانت مختصرة ، ولو كنت تذاكر قبل الامتحان مختصرًا من المختصرات ، لكن لابد أن تمر على الموضوعات المختلفة ، لابد أن تكون على علم بكل القضايا المطروحة على الساحة كلها ، ولا أعني الساحة التي يتكلم فيها الناس ، ولكن أعني ساحة الإسلام والإيمان والإحسان ، لابد أن تحدد معالم هذا المنهج لدى كل أخ من الإخوة ولو بمختصر من المختصرات ، لابد للمرء أن يكون فاهماً لقضايا الإيمان بحدودها المختلفة ، ولابد أن يكون متفهمًا لمناهج الإصلاح المطروحة ، وأين هو منها ، كيف يسْلك مناهج الإصلاح ، وكذا قضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابد أن يكون على فقهٍ منها وبيّنة ، في فهم علمي وتطبيق عملي ومشاركة ، ولابد أن يكون على فهم بقضايا التعاون على البر والتقوى وحدودها وضوابطها ، وكيف يتم التعامل مع إخوانه ، لابد أن يكون

فاهماً لهذه القضايا وإلا فسوف يكون هناك خلل كبيرٌ لديه .

ولا يجعل همه مجرد تشقيق الكلام وتفريعه بدون فائدة ، وإذا نازعته نفسه في التفريع والسؤال وتقسيم العلوم سألها : ما فائدة ذلك ؟ وإنما أريد أن أتعلم لأعمل ، إلا أن يكون علمًا مقصودًا لذاته ، كالعلم بالله وأسمائه وصفاته وكلامه عز وجل ، فهذا علم مقصود لذاته حتى وإن لم يكن من ورائه عمل ظاهر ، ولكنْ ـ وراءه عمل قلبي وإيماني ، لابد أن تكون معالم المنهج واضحة ، وأظن هذا الأمر مازال يحتاج إلى مجهود كبير ، وأكثر الإخوة لم يكلفوا أنفسهم قراءة ما سطر عبر مراحل الدعوة المختلفة ، ولو قرؤوها لقرؤوها كقراءة الجريدة ، وكثيراً ما نسأل الإخوة عن قضايا كقضايا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولماذا نختلف نحن عن غيرنا من المناهج ؟ فهذه القضايا لها ضوابط معينةٌ ، فمثلاً : ما الذي نفترق فيه عن المناهج المطروحة على غيرنا في قضايا القدرة والعجز ، وقضايا

الضرر الخاص والعام ، والمتعدي واللازم ، وقضية المصلحة والمفسدة ، وبأي ميزان تضبط المصالح والمفاسد ، وهذه مسائل خطيرة لابد أن تدرس ، ولا يمكن أن تدرس في هذه العجالة .

وإن قضايا الإيمان والكفر غاية في الأهمية والحساسية ، لابد أن تكون مدروسة مسألة مسألة ، ولابد أن تكون واضحة المعالم معلومة لكل الملتزمين ليكون التزامنا التزامًا جادًا ، وليس مجرد دهان من الخارج ولا إعلان أننا التزمنا ويبقى الإنسان كما هو وعلى ما هو عليه بعد ذلك .

والذي نراه على الساحة المعاصرة من خلل كبير يؤكد أن البدايات كانت خاطئة ، أعني بذلك انتشار البدع وسط أناس ظلوا عُمُرًا يدعون إلى السنة وزمنًا يدعون إلى الالتزام ، ولاشك أنهم حققوا منزلة حتى في قلوب كثيرين جداً من أهل السنة ، ولكن كيف أنطَلَت عليهم البدع ؟ وكيف صدرت عنهم ؟ وكيف كانوا هم سببًا في نشرها ؟ لاشك أن هذا الأمر كان فيه خلل من البداية .

ولذلك نقول لإخواننا لابد أن تضعوا أقدامكم على الطريق الصحيح من البداية ، ولابد أن تكون المسائل معلومة تفصيلًا بأدلتها من الكتاب والسنة ، لأنك سوف تسأل في قبرك : من ربك ؟ وما دينك ؟ وما تقول في الرجل الذي بعث فيكم ؟ أنت سوف تسأل عن ذلك ، والإجابة الإجمالية مفتاح الخير بإذن الله ، وأهل البدع على خطر ، وقد يسأل البعض : ما يفعل أهل البدع في القبور ولم يذكرهم ربنا ؟

أهل البدع في القبور دينهم الإسلام في الجملة ، ولكن نظرًا لوجود البدع فلن يستطيعوا الإجابة بالثبات نفسه الذي يجيب به المسلم الذي عَلِم تفاصيل دينه وعلم حقوق نبيه ﷺ وعلم قبل ذلك حقوق إلهه وربه ، وحقق التوحيد كما ينبغي ، وإلا فمَنْ عندَه شركيات وضلالات ربما يكون في الجملة دينه الإسلام وأشرك شركًا أصغر ، أو شركًا أكبر عُذِر بجهله وتأويله فيه فلم يخرج من الملة ، ولكن لن يكون في قبره على خير ، ولن يكون في القيامة على خير ،

وربما رُدّ عن حوض النبي ﷺ ، والله أعلم أينجو بعد ذلك أم لا ، فإن الذين يردون عن حوض النبي ﷺ وهو يقول : « يا ربِّ أمّتي أمّتي » ، يقال له عنهم : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، يقول الرسول ﷺ : « **فلا ينجو منهم إلا مثلُ هَمَلِ النَعَمِ** » (١) ، وهي الغنم المُتأخرة في آخر القطيع ، وهي قلة ، فما ينجو من الذين يُردُّون عن حوض النبي ﷺ إلا القليل ، وكثير منهم يفتن عند موته ـ والعياذ بالله ـ ويختم له بخاتمة السوء ، وإن المرء ليتعجب من إنسان قضى عمره في خير كثير ، ثم تصدر عنه بعد ذلك أمور عجيبة جداً ، وهو إنسان ربما قضى عمره في تأليف الكتب وفي نشر العلوم والتعلم ، ثم يصدر عنه كلام ينافي ذلك .

وإنسان ربما يقضي عمره في أنواع من الخيرات ، وبعد ذلك يظن أن الشرع يؤدي إلى الخراب ـ والعياذ بالله ـ وأنه لو طُبِّقِ الشرع لخربت المصلحة التي يتصورها .. والعياذ بالله ، لذلك لابد أن يكون عند الإنسان منهج واضح

(١) رواه البخاري بنحوه (٦٥٨٧) .

ومعالم محددة مؤكدة .

الأزمة الثالثة العلاقات بين الإخوة وأحوال القلوب :

وهذه أزمة لابد أن نتعاهد على حلها فعلًا حلًا جذريًا ، فكثرة المشاكل تدل على أن الدنيا محل التنافس ، وقد تكون المشاكل صغيرة محدودة جداً ، ويمكن أن تحل بأيسر الطرق ، ولكنها تتفاقم تفاقماً تظل تعالج فيه سنين ولا تجد للمسألة مخرجًا إلا برحمة الله سبحانه وتعالى ، وربما يتم العلاج ويعود الأمر متفاقماً بعد حين على كافة المستويات .

فالأمر يحتاج لوقفة ، ونريد أن نكون مخلصين لله سبحانه وتعالى في عملنا وفي تحقيق الحب في الله سبحانه وتعالى ، نريد أن يحب بعضنا بعضاً في الله ، ونريد أن نذوق حلاوة الإيمان ، فقد قال ﷺ : « **ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإيمان : أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سِوَاهُما ، وأنْ يُحِبَّ المرْءَ لا يُحِبُّه إلا لله ، وأن يَكْرَهَ أن يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ إذْ أَنْقَذَه الله منه كما يَكْرَهُ أن يُقذَفَ في النارِ** » (١) .

(١) البخاري ١٦ ، ٢١ ، ٦٩٤١ ، مسلم ٤٣ .

والله إن حَرَّ الشمس يوم القيامة حَرٌّ عظيم ، فإن رسول الله ﷺ أخبر أن الناس يعرقون في موقف القيامة حتى يُلجِمَ العرق بعضهم(١) بعد أن يذهب في الأرض سبعين بَاعاً(٢) ، حَر شمس دانية تدنو من الرؤوس قدْر ميل ، وهناك من يكون في ظل الله ، ألا نريد أن نكون من هؤلاء ؟ فمن أصنافهم : رجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ونريد أن نكون صادقين حين نقول لبعضنا : إني أحبك في الله .. ، بدون مجاملة ، ووالله إن هذا أصبح أمرًا عسيرًا إلا على من يسّره الله ﷻ عليه ، وكلمة : إني أحبك في الله كلمة كبيرة جدًا عظيمة القدر والأهمية لابد أن تقولها وأنت صادق فيها ، وبالتأكيد سيكون تعاملك مختلفاً تماماً ، فالذي يحب تكون طريقة تعامله مختلفة عن الذي لا يحب ، وبالتالي يكون عند المحب قدر عظيم من التسامح والتساهل وصفاء الود وصفاء القلوب وتحل معظم

(١) مسلم ٢٨٦٤ ، أحمد ٢١٦٨٢

(٢) مسلم ٢٨٦٣ ، أحمد ٩١٤٤

مشاكلنا ، نسبة كبيرة من المشاكل ستُحل لو كان عندنا ود صادق ، ولن يقف بعضنا لبعض على الخطأ والزلة ، فضلاً عن سوء الظن وهذا جانب آخر وحده .

إن المشاكل تتفاقم ، ولا يوجد أحدٌ يصارح أخاه بما في قلبه ، وذلك لوجود حواجز كثيرة ، وهذا الأمر يدل على وجود الدنيا ، وهي التي تحدث التنافس عليها ، كما قال النبي ﷺ : **«ما الفَقْرَ أَخْشَى عليكم ، ولكِنّي أخشَى عليكم أن تُبْسَطَ الدنيا عليكم كما بُسِطَت على مَن كان قَبلكم فَتَنافَسُوها كما تنافسوها وَتُهْلِكَكُم كما أَهْلَكَتْهُم »**(١) .

فالتنافس على الآخرة يؤدي إلى الرحمة وإلى مزيد من المحبة ، فقد كان عمر ينافس أبا بكر ويسابقه إلى الله ﷻ ولكن بحب صادق عظيم ونصيحة مخلصة ، وربما اختلفوا ، لكن الخلاف ما أوقع بينهم أبدًا ضغينة ولا أحقادًا ، ولا يستطيع أحد أن يُوقع بينهم الضغائن والأحقاد .

(١) البخاري ٣١٥٨ ، ٤٠١٥ ، ٦٤٢٥ ، مسلم ٢٩٦١ وهذا لفظه .

أما الآن فالضغائن والأحقاد تملأ السهل والوادي إلا من رحم الله (سبحانه وتعالى) والمشاكل نابعة من الضغائن والأحقاد، بداية من الصغير قبل الكبير، فلابد أن نعالج هذه القضية لأنها تحتاج إلى علاج جِذري أكيد بالمصارحة مع النفس، وأن تُنَحّي الكبْر الذي في النفس جانباً، وألا يُحس الإنسان أنه كبير لدرجة أنه لو مسّه أحد لظن أنها مصيبة كبيرة وأن له حقاً على الناس.

وإنما ذلك الظن نتيجة الفقر إلى الدنيا، ونتيجة أنه يشعر أن الناس دائمًا مقصرون في حقه، أما إن كان غنيًا بالله (عز وجل) فلا يهمه لو قصّر الناس في حقه خمسين مرة.

وانظر إلى غنى النبي (ﷺ) بالله، فوالله ما ضرب الرسول (ﷺ) بيده خادمًا ولا امرأة إلا أن يجاهد في سبيل الله، يقول أنس: « خَدَمْتُ رسولَ الله (ﷺ) عَشْرَ سنينَ، فما قال لي: أُفٍّ قَطُّ، ولا قال لي لشيء لمَ فعلتَ كذا؟ وهلّا فعلْتَ كذا؟ »(١).

« فإن لامني بعض أهله إلا فقال: دَعُوه، فإنه لو قُدِّرَ

(١) البخاري ٦٠٨٣، مسلم ٦١٥١ وهذا لفظه.

كانَ أو قضي أن يكون كان »(١).

فنريد أن نقتدي بالرسول (ﷺ) في هذا التسامح العظيم، فلا نغضب إلا لله (عز وجل)، ولا ننتقم إلا إذا أُنتهكت حرمة من حرمات الله، فما انتقم رسول الله (ﷺ) لنفسه قط، حتى عندما جاء أعرابي وأمسك ببُرد الرسول (ﷺ) وجذبه جذبًا شديدًا حتى نظر الصحابة إلى أثر البرد وقد أثرت حاشيته الغليظة في رقبة النبي (ﷺ)، ثم قال: يا محمدُ مر لي من مالِ الله الذي عندك(٢)، فانظر إلى سوء الأدب البالغ الفظيع، فضحك النبي (ﷺ) وأمر له بعطاء (ﷺ)، ليكون قدوة للصحابة (رضي الله عنهم) ولمن بعدهم في التسامح والتساهل، فالمؤمن كل قريب هّين لّين سهل.

فلو صَغُر حظّ الدنيا عِندنا ولو صغرنا في أنفسنا ولو تواضعنا لله (عز وجل) ستقل الخصومات كثيرًا، ولو رأى كل واحد نفسه هو المخطئ وقال: أنا كُنتُ أَظْلَمَ، كما قالها

(١) هذه الزيادة صححها الألباني في ظلال الجنة.

(٢) رواه مسلم ١٠٥٧.

أبو بكر الصديق ؓ ولم يكن الأظلم ، ولكن هذه هي نظرته لنفسه ، عندما تخاصم مع عمر بن الخطاب ؓ ، لم يُكملا عدة ساعات حتى بحث كل منهما عن الآخر ليصالحه ، وكان كل منهما في البداية يرى أنه المحق اجتهادًا منهما ، ثم ذهب عمر لأبي بكر في الوقت الذي ذهب أبو بكر فيه إليه فلم يجده ، فذهب أبو بكر للنبي ﷺ فغضب النبي ﷺ لأبي بكر لمنزلته العظيمة ، فأتي عمر معتذرًا ، والرسول ﷺ يقول : « **فهل أنتم تارِكُو لي صاحبي** » فغلظ على عمر لحقّ أبي بكر ، فما كان حال أبي بكر حينئذ؟ كان مشفقاً على عمر ، وقال : يا رسول الله ، أنا كنت أَظْلَم [(١)].

والرسول ﷺ ما أخطأ في ذلك ، وإنما قال : « **فهل أنتم تاركو لي صاحبي** » فما أوذي بعدها أبو بكر .

فانظر إلى رحمة أبي بكر ؓ المشفق الخائف على عمر ؓ ، ولذلك كان يقول : أنا كنت أظلم ، وهو صادق في نفسه ،

(١) رواه البخاري ٣٦٦١ .

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا إلى الخلق الكريم ، فلو قال كل خصم في هذه الخصومات الكثيرة التي تقع : أنا كنت أظلم ، لو مّرن لسانه على ذلك ـ مع أن قلبه يرى أنه ليس كذلك ـ لكان في ذلك حل للمشكلة وانفراج لكثير من المشاكل ، لكنْ حتى اللسان ربما يأبى أن ينطقها ، مع أنه هو الأظلم في الحقيقة في كثير من الأحيان ، فالظالم يرى نفسه مظلوماً دائما ، لا يرى نفسه ظالمًا أبداً ، وإن كان ـ والله ـ من أظلم الظلمة يرى نفسه لم يظلم الناس ولم يصنع بهم شيئاً ، بل هو رجل تقي صالح في قمة الصلاح ولا يري نفسه ظالماً ، وهذه مسألة خطيرة ، تعظيم مقدار النفس عند صاحبها ، فعندما تصغر عليه نفسه يسْهُل عليه أداء الحقوق ، وفي الحقيقة عندما تصغر يرتفع صاحبها لأعلى ، وعندما يَصْغُر في نفسه يَعْظُمُ عند الله ﷻ وكما قال رسول الله ﷺ : « **مَن تَوَاضَعَ لله رفَعَه الله** » [(١)] .

هذه المسائل أحببت أن أذكر نفسي أولًا وإخواني ثانيًا

(١) صححه الألباني في صحيح الجامع ٦١٦٢ .

بها ، وفي الحقيقة نحتاج فعلاً إلى تغيير جِذري لأن الواقع الذي نعيشه مؤلم جدًّا ، وإذا لم نتغير فلن يتغير الواقع ، وبالتالي لن يرتفع عنا البلاء الشديد ، نسأل الله العافية ، البلاء الذي لن يتحرك بالأدوات المادية ، وأنت ـ والله ـ عندما تحسب الأمور بالموازنة المادية لا تجد لها حلاً ، كيف تقاوم كل هذا العالم ، والعالم كله ضدنا ، يري الأبيض أسود ، والأسود أبيض ، والمظلوم ظالمًا والظالم مظلومًا ، نسأل الله العافية ، فلا تحل الأمور بهذه الطريقة ، بل يُفرَج من عنده ﷻ ، وعندما ترتفع قلوبنا إلى الله ﷻ عندها تتغير الموازين ، فالجاذبية الأرضية تنتهي عندما نرتفع لأعلى ، فتختل الموازين الأرضية وتختفي عندما يقوي الإيمان ، ونحن بالتأكيد نحتاج لذلك ، ولا نعلق على أخطاء الآخرين ، ونقول : أناس غيرنا هم الخاطئون لأن الفساد يملأ الدنيا .

نسأل الله ﷻ أن يجعلنا من عباده المؤمنين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

من إصداراتنا ..

قصة أصحاب السبت

كتبه

ياسر برهامي

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين